

لوحات ثورية. لوناتشارسكي تعريب أحمد خليفة

صدر عن مؤسسة الأبحاث العربية
النسخ الرقمي جريدة المناضل-ة

المقدمات والمحتويات

تشرع جريدة المناضل-ة في نشر كتاب الثوري الروسي، وأول وزير ثقافة بعد ثورة أكتوبر، أ.ف. لوناتشارسكي. فيما يلي المقدمات، وقائمة محتويات الكتاب. وبعده النص الأول حول لينين

مقدمة اسحق دويتشر

لا يتذكر العالم الغربي جيداً اسم اناتولي فاسيليفتش لوناتشارسكي، وقد لا يكون معروفاً على نطاق واسع الآن حتى في روسيا. ومع ذلك فهو واحد من أشهر قادة الثورة، ومفوض الثقافة العظيم الأول فيها. ولا يزال تأثيره في الحياة الثقافية السوفيتية حياً، وإن كان مطموساً. ويكتشف فيه الآن جيل جديد من المثقفين السوفييت واحداً من آباءه الروحيين.

ولد لوناتشارسكي في بولتافا في العام 1875، ونشأ في بيئة من النبلاء الصغار، تحت تأثير أشخاص مثقفين جيداً، ذوي تفكير راديكالي. وكان والده كاتب عدل. وقد روى لوناتشارسكي عن نفسه: «لقد

أصبحت ثوريا في مرحلة مبكرة من حياتي إلى حد لم أعد أذكر معه متى لم أكن كذلك. ومررت طفولتي تحت التأثير القوي لألكسندر ايفانوفيتش انطونوف [صديق والدته] الذي لم يخف مطلقا ميله للطموحات الراديكالية واليسارية، ورغم كونه عضوا فعالا في المجلس الاستشاري ورئيسا لمجلس الرقابة في نيجني نوفجورود ثم في كورسك». وكانت هذه البيئة مشابهة لتلك التي ترعرع فيها لينين، إلا أنها أقل ريفية، وأكثر تقدما من الناحية السياسية. وكانت نشأة لوناشارسكي في مدينة كييف، وهي آنذاك نقطة التقاء للثقافات الروسية والبولندية واليهودية والاوكرانية، ومركزا هاما للحركات الراديكالية والاشتراكية، وقد انضم طالب المدرسة، الذي كان قارئا نهما وموهوبا وناضجا عقليا قبل الأوان، في مرحلة مبكرة جدا إلى إحدى الحلقات الماركسية السرية، وساهم في توسيعها إلى أن أصبحت تضم منتهي طالب. وكان الماركسيون هناك قد استطاعوا، قبل أي مكان آخر في إمبراطورية القيصر، التغلب على الشعبين، بحيث أصبحت الماركسية الهوى الذهني للمراهقين، وهو هوى لازم لوناشارسكي طوال حياته. إلا انه أيضا في مرحلة مبكرة جدا من حياته، وجد نفسه منجذبا بصورة مساوية إلى تيار عقلي آخر - إلى الفلسفة التجريبية النقدية - (Empirio-Criticism) وخاصة نظريات البروفسور الألماني - السويسري افيناريوس. وفي العام 1894، غادر لوناشارسكي روسيا إلى سويسرا، وأسلم نفسه إلى افيناريوس في جامعة زوريخ. وقد خلفت تلك السنة أثارا لا تمحى على نظرته. وأصبح طموحه منذ ذلك الوقت التوفيق بين تأثيرات ماركس وافيناريوس. وبات مقتنعا أن الماركسية بحاجة إلى «دعم» فلسفي، وأن التجريبية النقدية هي الفلسفة الأكثر ملاءمة لذلك. وقد قابل لوناشارسكي في زوريخ اكسلرود وبلخانوف، مؤسسي الماركسية الروسية ونوريها الهاديين، وأبديا استياءها من «نقطة الضعف» الفلسفية هذه لديه. وقد أصغى إليهما وتعلم منهما، وخصوصا من بلخانوف، إلا أنه ظل متمسكا بافيناريوس. ولم تمض فترة طويلة حتى ذاع صيته في تجمعات المنفيين والطلبة الروس في أوروبا الغربية بأنه محاضر لامع وخطيب موهوب، وشخص واسع المعرفة إلى حد مذهل بالنسبة لعمره. (سجل في الجامعة في مقررات التشريح، علم الحيوان، علم النفس، الفلسفة والاقتصاد السياسي). وكان من بين زملاءه الطلبة روزا لوكسمبورغ، التي اشتهرت بعد فترة قصيرة في الأوساط الاشتراكية الأوروبية بصفاتها ألمع خصم للتقنيين

(Revisionists) والإصلاحيين أثناء الجدل الكبير الذي دار في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني. ويتذكر لوناشارسكي أنه حتى في الجامعة «كنت احترمها جدا، وبصورة ما مفتونا بها. وقد سحرني شيء ما خرافي وشيطاني قليلا في قوامها النحيل البالغ القصر ورأسها الكبير المعبر فوق كتفيها الواهنتين». كما كان من بين المهاجرين القدامى لافروف، ملهم الشعبية الروسية وصديق ماركس، الذي كان يقترب من نهاية حياته: وكان «يعيش في تجويف كالكهف محفور وسط الكتب... وبدا لي أعجوبة في المعرفة الانسيكلوبيدية. واستطلعت التوصل إلى إجراء مناقشات ممتعة ومطولة معه حول أمور كنت معنيا بها في ذلك الوقت أكثر من أي أمر آخر، أصول الأساطير القبلية لدى شعوب نائية عن بعضها البعض، والقواعد التي يتحكم تطور تلك الأساطير». ولكن أيا من هذه الاهتمامات لم يضعف الحماس الثوري للشباب، بل العكس، فهو من أجل أن يكون فعالا كثوري احتاج إلى النظر إلى المجتمع من كل جوانبه الممكنة. وكان حماسه قويا إلى درجة أنه أقنع أخاه المشلول، المصاب بداء عضال، بأفكاره واجتذبه إلى النشاط الثوري في فرنسا ثم في روسيا. وما إن مضت فترة وجيزة حتى قادته أفكاره التجريبية الانتقادية إلى الصدام مع بليخانوف، الذي بدت «سلفيته» بالنسبة إلى عقل لوناشارسكي «جافة وعقلانية أكثر من اللازم». كما بدت محاولات بليخانوف المزوجة فلسفيا بين الماركسية وتراث حركة التنوير الفرنسية، وخصوصا ديدرو وهولباخ، «سطحية وغير مقنعة».

وفي العام 1896 عاد لوناشارسكي مع أخيه إلى روسيا، وتوجه إلى موسكو وانضم فورا إلى مجموعة سرية كانت تحاول، بعد أن ألقت الشرطة القبض على عدد كبير من أفرادها، إقامة منظمة اشتراكية ديموقراطية جديدة. وكان من بين أفراد هذه المجموعة اليزاروف، شقيقة لينين الكبرى (لينين نفسه، غير معروف تقريبا، حتى آنذاك على عتبة الانطلاق في مساره الثوري). ولكن ما أن مرت فترة وجيزة، حتى القي القبض على لوناشارسكي. وأتضح أن عميلا للشرطة كان مدسوسا في صفوف المجموعة. وقد احتجز في السجن الانفرادي لمدة ثمانية شهور، ثم جرى ترحيله شمالا إلى كالوجا، فولودجا، وأمكنة أخرى.

وكانت إقامته في كالوجا مهمة بصورة خاصة من زاوية مستقبل حياته، إذ تعرف هناك إلى أ.أ. بوغدانوف (مالنوفسكي)، الذي سيصبح صديقه الأقرب، وزميله السياسي والفلسفي (ثم أخ زوجته). لقد كان بوغدانوف، المنسي الآن ظلماً، واحداً من أكثر الشخصيات أصالة وإثارة للإعجاب في الحركة الثورية الروسية. وكان في السنوات القليلة الحاسمة، بين العامين 1903 و1907، الرفيق السياسي الحميم للينين، وأحياناً نائبه في القيادة. وكان يتسم بنبل نادر، وقوة شخصية بطولية ومواهب عقلية متعددة الجوانب. وقد اشتهر بصفته اقتصادياً ومؤلفاً لكتاب تعليمي ذائع الصيت. كما كان الشارح الروسي البارز للفلسفة التجريبية النقدية أو التجريبية-التوحيدية. وقد أوجد بصفته قائداً سياسياً اتجاهها خاصاً في البلشفية. وابتدع، كناقد فني، فكرة الثقافة البروليتارية (Proletkult) وإضافة إلى ذلك كان طبيباً بارزاً ورائداً في البحث العلمي -وتوفي في العام 1928 أثناء إجرائه تجربة طبية خطيرة على شخصه. وقد شدّ بوغدانوف من عزيمة لوناشارسكي في سعيه، إلى التوصل إلى مركب يجمع بين الماركسية وفلسفة أفيناريوس.

وقد استفاد المنفيون في الأماكن التي أبعدها إليها في الشمال من مساعدة وتعاطف السكان المحليين من أجل الدرس وإلقاء المحاضرات والمساهمة في الدوريات المختلفة. وكان من بين الذين اشتبك معهم لوناشارسكي في مناظرة عامة زميله في المنفى برديايف، الذي بدأ في ذلك الوقت في الابتعاد عن الماركسية باتجاه احتضان المسيحية. وكان موضوع المناظرة بينهما الدين والاشتراكية. ومع أن لوناشارسكي هاجم آراء برديايف بحماس أثلج صدور الماركسيين، فإنه لم يسلم نوعاً ما من «عدوى» أفكار خصمه. إلا أن الشرطة، التي أفرعتها هذه المجادلات، رحلت لوناشارسكي بعد نحو الشمال، إلى ارنكانجل حيث أصبح معزولاً تماماً تقريباً. وأفاد من هذه العزلة الإيجابية في كتابة واحد من أهم أعماله الإبداعية- «تجربة علم الجمال الوضعي». كما ترجم لكثير من الشعراء الأوربيين وخصوصاً الألمان، ونشر عدداً كبيراً من المقالات النقدية الأدبية. وفي دراسته حول علم الجمال لم يحاول الجمع بين التجريبية النقدية والمادية الديالكتيكية فحسب، بل شدد أيضاً على الأساس البيولوجي والفيزيولوجي للحساسية الجمالية.

وقد وجه إليه النقد على أساس أنه أهمل أثر دور المجتمع في تكييف الفن، بيد أنه في الحقيقة طرح الموضوع بصورة جيدة في إطار النهج الماركسي في التفكير. وقد أوضح في فترة لاحقة بشكل فعال صحة أفكاره بصورة خاصة في تحليله للعوامل الفيزيولوجية والبيولوجية في تطور الموسيقى.

وبعد أن أنهى لوناشارسكي مدة حكمه، عاد في سنة 1901 أو 1902 إلى كييف، حيث عرضت عليه إحدى الدوريات الليبرالية وظيفة الناقد الأدبي فيها، ولكنه لم يحتفظ بمنصبه طويلاً. ففي العام 1903 انهمكت جميع الأوساط الاشتراكية في أوروبا بمتابعة الانشقاق الذي حدث آنذاك في أوروبا الغربية بين المناشقة والبلاشفة. وكانت الصدمة في روسيا هائلة إلى درجة أن كثيراً من البلاشفة أعادوا النظر في موقفهم وسعوا لإعادة توحيد الحزب. ولكن لينين، على أية حال، بقي صامداً وكان من بين القلائل الذين دعموه دون تحفظ بوغدانوف. وحث بوغدانوف لوناشارسكي على القدوم إلى سويسرا للمساهمة في تحرير دورية بولشفية صدامية. واستجاب لوناشارسكي للدعوة، رغم الشكوك والتحفظات الذهنية التي ساورتها. ولم تخلق لقاءاته الأولى مع لينين، في باريس وجنيف في سنة 1904، ذكريات سارة جداً. فبالنسبة إلى منظر «علم الجمال الوضعي»، بدا لينين منغمساً كلية في السياسة وملتصقا بالواقع العملي أكثر من اللازم. ومع ذلك أصبح لوناشارسكي بلشفياً ناشطاً: ليس بسبب قناعاته بصواب لينين، وإنما لإحساسه الأعمق بأن المناشقة على خطأ، وأنهم أعاقوا الثورة من الداخل، وجروها إلى درك الانتهازية الصرفة والتسويات.

وقد وصف زمالته المبكرة مع لينين في ذكرياته الصريحة التالية، التي نشرت بعد الثورة: «بالطبع كان هناك اختلاف كبير [في الشخصية] بيني وبين لينين، كان يتناول جميع المسائل بصفته رجل عمل سياسي بجرأة روحية هائلة، وبصفته تكتياً وقائداً سياسياً عبقرياً حقاً، بينما كان تناولي للمسائل تناول فيلسوف، أو بالأحرى، شاعر لثورة. فالثورة كانت، بالنسبة لي، مرحلة مأساوية بالضرورة في التطور العام للروح الإنسانية نحو «الروح الكونية»، الحدث الأعظم والأكثر حسماً في عملية «بناء الإله»، والفعل الأكثر إدهاشاً وتحديداً في تحقيق البرنامج

الذي صاغه نييتشه بصورة موفقة جدا في قوله: «إن العالم من دون معنى، ولكن ينبغي أن نمنحه المعنى».

وعندما يقرأ المرء هذا الكلام، لا يجد مشقة في تخيل لوناشارسكي لو عاش أربعين أو خمسين سنة بعد قوله هذا كوجودي يساري من نمط ما، يجادل في «عبثية الشرط الإنساني» ويسعى إلى «أنسنة» الماركسية. لقد كان لوناشارسكي، بدون شك، مفرط الحساسية إزاء الأنماط الفلسفية والجمالية السائدة في عصره، وكان نييتشه وافيناريوس يمثلان بالنسبة إلى مثقفي جيله ما يمثله هايدجر وسارتر، مثلا، بالنسبة إلى بعض معاصرينا. ولكن بما أنه لم يكن سهلا آنذاك الطعن في الطابع اللاإنساني للماركسية الثورية، فإن أتباعها لم يتطلعوا إلى «أنسنتها» وإنما إلى «تأليها». وقد قال لوناشارسكي: «لقد بشرت بدين مأساوي ومفعم بالنشاط، ليس فيه أثر من «الإيمان» أو «الصوفية». وقد تصدى بليخانوف، المنشفي والأشد تمسكا بنقاء الفلسفة الماركسية، بقوة لهذه الهرطقة. وكان لينين يحترم ويقبل رأي بليخانوف في هذه المسائل. وعندما سئل مرة عن رأيه في شخص يعلن أن «الاشتراكية هي دينه»، أجاب بكثير من الذكاء الدياليكتي أن كل شيء يعتمد على هوية القائل. «إذا كان القائل شخصا متدينا فمعنى ذلك فعليا أنه يهجر الدين إلى الاشتراكية. ولكن إذا ادعى ذلك شخص يعتبر نفسه ماركسيا فمعنى ذلك أن يهجر الاشتراكية إلى الدين». إلا أنه لم يخطر ببال لينين، على أية حال، أن يبدأ خصومة سياسية حول مسألة فلسفية. ولم تبد على لوناشارسكي، بالمقابل، أية أمارة تدل على هجر الماركسية (أو حتى البلشفية) من أجل الدين. وهكذا أصبح عضوا في هيئة تحرير بلشفية مصغرة أصدرت صحيفتين: «إلى الأمام» و«البروليتاري»، وساهم فيها إلى جانب لينين ولوناشارسكي عضوان آخران. وقد أظهر لوناشارسكي، الذي كان يكتب تحت الاسم المستعار فينوف (المقاتل)، حماسة النضالي ليس في مناظراته ومناوشاته مع المناشفة فحسب، بل أيضا في مؤتمر الحزب، الذي ضم البلاشفة فقط، حيث قدم تقريرا حول العصيان المسلح ومكانه في الاستراتيجية الثورية. ولكن قلبه كان، على أية حال، مع الشعر والفن أكثر مما هو مع الاستراتيجية والتكتيك. وظل كذلك حتى أثناء ثورة 1905، التي لم يلعب فيها دورا بارزا. فهو، مثل لينين، وصل إلى روسيا متأخرا والثورة في طور الانحسار. وقد ساهم مع مكسيم غوركي، لفترة

قصيرة في سان بطرسبورغ، في تحرير صحيفة نوقايا جيزن [الحياة الجديدة] البلشفية، التي كانت أول صحيفة صدرت علنا. واجتذبت محاضراته، ومعظمها حول مواضيع أدبية وفنية، جماهير كبيرة لدرجة أن رسوم الدخول شكلت مساهمة أساسية في صندوق الحزب، الذي لم تكن أحواله حسنة.

أما الصدع في العلاقات بينه وبين لينين، فقد حدث في فترة لاحقة، في العام 1908، في فترة الهزيمة والردة الرجعية. كانا قد أصبحا مهاجرين في أوروبا الغربية مرة أخرى، ومعظم أتباعهما المكروبيين في روسيا قد تفرقوا. وحث لينين حزبه على الصمود، والعمل السري العميق، ولكنه حثه أيضا على العمل في العلن، وفي نطاق القانون، كلما سنحت الفرصة لذلك. وكثيرا ما كان يقول، بواقعيته وتصميمه المعهودين أبدا، «أنه ينبغي علينا أن نتعلم فنون التراجع». وقد خاض النقاش، من جهة، ضد تلك الفئة من المناشقة التي دعت إلى حزب علني دون نشاط سري على الإطلاق، ومن جهة أخرى، ضد «اليساريين المتطرفين»، الرمانسيين الثوريين، بين رفاقه، وخصوصا بوغدانوف ولوناشارسكي، اللذين لم يبديا ميلا لتعلم «فنون التراجع». وقد ضغط بوغدانوف ولوناشارسكي على لينين كي يتصل من الأعضاء الاشتراكيين في مجلس الدوما (شبه البرلمان الذي أوجده القيصر)، باعتبار أنهم تصرفوا، بحسب رأيهما، بجبن شديد وتكيفوا مع الرجعية المنتصرة. ورفض لينين القيام بذلك، وبالتالي هاجمه اليساريون المتطرفون ووصفوه «بالانتهازي» و«شبه المنشفي».

وأنت في أعقاب الخلاف حول التكتيك المناظرة الفلسفية الكبيرة التي ألف لينين في خضمها كتابه المادية التجريبية النقدية. وكانت مساهمة لوناشارسكي الرئيسية في هذه المناظرة مجلدي الاشتراكية والدين اللذين جوبها برفض شديد من قبل بليخانوف.

وقد تجنب لينين هذه المناظرة لفترة طويلة، وأقبل عليها وهو كاره لها. والسبب في ذلك هو أن المناشقة استغلوا بشدة كون غالبية «المنحرفين» عن الماركسية من الناحية الفلسفية و«الساعين إلى الرب» هو من البلاشفة.

ونصّب المناشفة أنفسهم حماة للماركسية السلفية (الأرثوذكسية) واستغلوا هذا الواقع للتشهير بلينين وأنصاره. ورد لينين بالمتصل من آراء لوناشارسكي وبوغدانوف الفلسفية والسياسية، وأخضعها لنقد صارم. لقد كان لديه الاستعداد للتساهل إزاء أية «هرطقة» فلسفية أو دينية داخل الحزب حرصا على الوحدة السياسية. ولكن لما كانت هذه الوحدة السياسية قد انهارت على أية حال، ومجموعة بوغدانوف- لوناشارسكي تحركت ضدّه علنا، فإنه لم يعد هناك سبب يدفعه للبقاء صامتا إزاء الخلافات الفلسفية. كما كانت لديه قناعة أن التطرف اليساري لبوغدانوف ولوناشارسكي لم يكن منفصلا عن «انحرافهما» الفلسفي. إلا أن حجج بليخانوف ضد التجريبية النقدية، وتلك التي أتى بها لينين، لم تحدثا، على أية حال، تأثيرا كبيرا على لوناشارسكي الذي بقي متمسكا بأرائه حتى النهاية.

ويجدر هنا تسجيل واقعة لها صلة بالصراع الفئوي المنهك المثلث أو المربع الأطراف الذي استمر حتى الحرب العالمية الأولى. فقد وجد لوناشارسكي وبوغدانوف حليفا لهما في مكسيم غوركي، الذي كان آنذاك في أوج شهرته كروائي وكاتب مسرحي. وأسس الثلاثة «مدرسة حزبية» في كابري في إيطاليا، استقدموا إليها عمالا من روسيا، قدموا لهم تنقيفا في النظرية الاقتصادية والتاريخ والفنون، ولقنوهم مبادئ «نشدان الإله»، و«عبؤوهم»، دون شك، ضد سياسة لينين اليمينية «الشبه منشفية». وقد أنكر عليهم لينين الحق في إطلاق تسمية «المدرسة الحزبية» على هذه الدورات التنقيفية، وشجب مغامرتهم ووصفها بأنها مؤامرة فئوية، ونجح في تعطيلها عن طريق كسب بعض تلامذة لوناشارسكي إلى صفه. ولكن لوناشارسكي عاد فافتتح مدرسة ثانية في بولونيا، تمكنت بفضل أساتذة مثل لوناشارسكي نفسه، وغوركي وتروتسكي والمؤرخ بوكروفسكي وآخرين، من اجتذاب تلامذة جدد من العمال. (قاد لوناشارسكي نفسه العمال في جولات في المتاحف ومعارض الرسم الإيطالية على أمل أن يدخل شيئا من روح عصر النهضة في نفوس كوادر الثوريين الروس). أما لينين فقد أنشأ مدرسته الخاصة في لونغجومو قرب باريس، حيث درب بنجاح أكبر بكثير قادة ومفوضي المستقبل، بمساعدة عدد أقل من الأساتذة اللامعين، وبرنامج أكثر التصاقا بالواقع. إلا أنه على الرغم من الخصومات والمجادلات بقي لينين، على أية حال، على صلة حسنة بلوناشارسكي، وبغوركي

بالطبع. ومثل لوناشارسكي، بموافقة لينين، البلاشفة في عدة مؤتمرات اشتراكية دولية. وعلى الرغم من النقد القاسي الذي وجهه لينين ضد آراء بوغدانوف، فإنه واجه «انحراف» لوناشارسكي بسخرية ودية. وروي انه في أحد الاجتماعات، بعد أن بشر لوناشارسكي بأرائه حول «نشدان الإله»، تقدم منه لينين منكس الرأس، وفي عينيه بريق مكر، وهمس قائلاً: «باركني أيها الأب أناتول».

وجاء اندلاع الحرب العالمية الأولى ليحجب جميع نزاعات ومشاجرات المهاجرين التافهة. وكان لوناشارسكي آنذاك في باريس، وأصدر مع تروتسكي ومارتوف صحيفة باللغة الروسية أعلنت عن معارضتها للحرب، وأيدت الحركة المدعوة بحركة تسيمرفالد -السلف الأول للشيوعية الأممية. وفي العام 1915، اثر إغلاق الحكومة الفرنسية للصحيفة وطرد تروتسكي من فرنسا، انتقل لوناشارسكي إلى سويسرا، حيث كان لينين بدوره يشن من هناك حملة ضد الحرب. وكان لوناشارسكي ما يزال آنذاك خارج صفوف البلاشفة. وفي العام 1917، بعد فترة وجيزة من ثورة شباط (فبراير)، عاد إلى روسيا، وانضم إلى المجموعة المسماة مجرايونتسي، وهي مجموعة كان يتزعمها تروتسكي. وفي إطار هذه المجموعة عاود الالتحاق بالحزب البلشفي في آب (أغسطس) من ذلك العام.

وقد لعب لوناشارسكي، بشهادة جميع شهود العيان من معاصريه، دورا بارزا في أحداث 1917. وفاجأ هذا «الساعي إلى الله»، «الرخو»، المتسم بذهول أساتذة الجامعة، جميع من شاهدوه وأذهلهم بروحيته النضالية التي لا تقهر وحيويته. لقد كان خطيب بتروغراد الحمراء العظيم، لا يعلو عليه في هذا المضمار غير تروتسكي. كان يخطب في كل يوم، أو حتى مرات عديدة في اليوم الواحد، أمام حشود ضخمة جائعة وغاضبة من العمال والجنود والبحارة، ويحطم دونما جهد تقريبا، بمحض إخلاصه ورهافة حسّه، جميع حواجز النشأة الاجتماعية والثقافة المحتمل أن تفصله عنهم. وقد افنتنت الجماهير به وأحبته. وعندما أمرت حكومته كرنسكي في تموز (يوليو) بسجن غالبية زعماء البلاشفة بتهمة التآمر والتجسس للألمان، أودع لوناشارسكي أيضا السجن. إلا أنه نال حريته بعد شهرين، وراح يدعو لحزبه في مجلس السوفييت، في المصانع والثكنات العسكرية ويكتل

ال جماهير تأييدا للانتفاضة المقبلة. ولاح للعيان في تلك الأيام المصيرية كبيرا إلى درجة أن الناس انتابتهم الحيرة فيما بعد، عندما رآه يلعب دورا صغيرا نسبيا بعد الثورة. وفي الحقيقة من المحتمل أن الذي حال دون احتلال لوناشارسكي موقعا في الصف الأول بين زعماء البلاشفة الكبار القلائل، رغم كفاءته وثقافته الواسعة وذكائه الرفيع، هو إفراط معين في الكرم ونقص ما في القدرة على التركيز الفكري وقوة الإرادة الداخليين. ولا يخول من الدلالة أن الصفة التي يشدد عليها ويبيدي أقصى إعجاب بها في تصويره لملامح شخصيات الزعماء البلاشفة لينين، تروتسكي، سفيردلوف وآخرين، هي إرادتهم القوية والمركزة، وهذه بالذات هي الصفة التي يفتقر إليها، بل انه في الحقيقية نقيض لما يدعى بالعقل المتوجه نحو هدف لا يحيد عنه.

وعندما عين لينين أعضاء حكومته الأولى لم يتردد للحظة في اختيار لوناشارسكي لمنصب مفوض الثقافة. وقد اظهر لينين في هذا الاختيار مقدرته العظيمة في الحكم على الرجال، وكان اختياره للشخص اختيارا لسياسة معينة. وقد اعتاد لينين أن يقول: «في مسائل الثقافة، ليس هناك ما هو أكثر ضررا وإيذاء من الحقد، الغطرسة والتعصب. وينبغي، بالنسبة لهذه المسائل، ممارسة قدر كبير من الرعاية والتسامح». وفضل أن يشغل منصب مفوض-الثقافة الشخص المنحرف، «الليّن»، الباحث عن الإله، على أن يشغله رفيق أكثر صرامة وتمسكا بالخط السلفي، رغم معرفته أن لوناشارسكي لم يكن إداريا على الإطلاق. لقد كان لينين، مثل قائد الاوركسترا الجيد العارف بنقاط القوة والضعف لدى كل عازف في فرقته، يوزع الآلات بشكل محكم تقريبا. ولم يكن واردا في الحسبان، بالطبع، أن يتراجع لوناشارسكي عن أي من هرطقاته الفلسفية، أو أن يعتذر عن أي من تقلباته السياسية، فهذه الطقوس لم يكن من الممكن، بكل بساطة، تصورها في عهد لينين. وإنما أدخلت في فترة لاحقة.

ومع لوناشارسكي لم يكن بعد العام 1917 في قيادة الحزب العليا، إلا أن دوره في العمل البناء في النظام الجديد كان من الدرجة الأولى. فقد كان على الثورة أن تتسلم «الميراث الثقافي» المتحدر من الماضي، وتحافظ عليه، وتجعله في متناول الجماهير كما لم يكن من قبل، كما كان عليها أن تدخل الروح الاشتراكية في العمل التثقيفي، وان تجرب

وتبدع. وقد جمع لوناشارسكي في شخصه بصورة مثالية بين خصائص كل من حامى التراث والمبدع.

وكان لوناشارسكي منسجما مع نفسه عندما استقال بعد أيام قليلة من توليه منصبه احتجاجا على القصف المزعوم للكرملين في موسكو من قبل الحرس الأحمر أثناء ثورة تشرين الأول (أكتوبر)، وتصوره أن القصف الحق أضرارا بجدران القصر. وقد نشر بيانا ملتهبا شجب فيه هذا «العمل التخريبي» وناشد الطبقة العاملة أن تضع تحت حمايتها جميع المنشآت الأثرية المعمارية والكنوز الفنية. ولم يعد إلى تولي منصبه إلا بعد أن تأكد من أن الكرملين لم يصب فعلا بأية أضرار أثناء الثورة. وكانت مهمته الأولى والأولية ضمان استمرار سير العمل في المدارس والمؤسسات الثقافية دون انقطاع. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، نظرا لأن كثيرا من الأساتذة والانتلجنسيا والمهنيين المحترفين رفضوا العمل في كنف «البلاشفة الغاصبين». ولم يأل لوناشارسكي جهدا في إقناعهم بالتخلي عن المقاطعة، ونجح في ذلك إلى حد كبير. فقد كان معروفا عنه إخلاصه للثقافة والعلوم والفنون، وأوحت تصرفاته وأسلوبه بالثقة. وغالبا ما وصف بأنه «المفكر بين البلاشفة، والبلشفي بين المفكرين». ومع أن هذا الوصف ربما لم يكن دقيقا تماما، لأن معظم القادة البلاشفة كانوا «مفكرين»، إلا أن لوناشارسكي كان مقنعا على نحو فريد في تعامله مع الأنتلجنسيا المعادية للبلشفية و«المحايدة». وقد ساعد لينين، الذي أدرك بوضوح أنه من الصعب على الثورة أن تحمي تراثها الثقافي دون الدعم الطوعي من جانب الأنتلجنجيسيا، لوناشارسكي بشتى الوسائل. وهكذا مُنح الأكاديميون والعلماء من أجل عملهم أوسع تسهيلات أمكن توفيرها في سنوات التدخل الأجنبي والحرب الأهلية والجوع والحرمان. وكان لوناشارسكي رائعا أيضا في نضاله ضد الأمية، وفي «إيصال» الموسيقى والفن المسرحي والأدب والفنون البصرية إلى الجماهير. ولم يتملق ذوق العمال والفلاحين، وإنما حاول تثقيفهم جماليا. وعصرن النظام الأساسي للتعليم، وأشرع أبواب المدارس أمام هواء الثورة النقي. كما أصلح طرائق التعليم بروحية متحررة تقدمية، مطبقا المفاهيم الماركسية ومستعيرا صراحة أفكارا من المفكرين «البرجوازيين» الأجانب المتقدمين. (نظرة سريعة واحدة على

المدارس السوفيتية كانت كافية لإثارة حماس عالم تربوي نزاع إلى الانتقاد مثل جون دوي، الفيلسوف الأمريكي البارز).

وفي جهوده من أجل إيصال التراث الثقافي إلى الجماهير وتثقيفهم من الناحية الجمالية، اضطر لوناشارسكي أحيانا إلى الإقدام على تضحية جليلة والهبوط من قمم مستواه العقلي الرفيع الثقافة كي يتحدث بوضوح وبساطة عن تيارات تاريخية أو أدبية معقدة. فهو يفعل ذلك مثلا في كتابه معالم الأدب الأوربي الغريب، الذي يشتمل على سلسلة من المحاضرات ألقاها في أوائل العشرينات في جامعة سفيردلوف أمام العمال والجنود الذين انتقاهم الحزب من قواعده من أجل ترقيتهم إلى مناصب اقتصادية أو إدارية وعسكرية. إلا انه لم يشجع، على أية حال، التبسيط على حساب الأصالة والتجريب. وقد تفتحت في ظل راعيه حقا «مئة زهرة» وازدهر كثير من المدارس الفنية والحلقات والمذاهب، التي كان بعضها غامضا ونخبويا. لقد كان شخصيا، بصفته ناقدا، محازبا صريحا. أما بصفته مفوضا أوكلت إليه مهمة الرعاية الرسمية للثقافة، فكان حكما منصفا وقادرا على التمييز. ولم يكن ليخطر بباله فرض آرائه أو ذوقه على أي شخص. وقد ألف شخصيا مجلدات في النقد الأدبي تناول فيها بوشكين، غوغول، تولستوي، دستوفسكي، اندرييف، غوركي وآخرين، ورعا عبادة قومية للأدب الكلاسيكي. إلا أنه في الوقت نفسه، لأسف لينين وتروتسكي، دعم مفهوم «الثقافة البروليتارية» التي دعا أنصارها إلى قطع الصلة بمجمل التراث الكلاسيكي، وبشّروا بحلول حقبة بروليتارية في الفن والأدب. وشجع في وقت مبكر أعمال بيكاسو (التي خزنت في أقبية المتاحف السوفيتية حتى في أثناء حياته). كما شجع تاتلين، المعماري العظيم، الذي كان من الجائز القول عنه أنه كوربوزي روسيا، لولا إغراقه المفرط في «الحدائث». وعين شاغال مديرا للأكاديمية الشعبية للفنون في فيتبسك، وأفسح المجال نفسه لماليفسكي، الفنان التشكيلي (الاستدلالي Constructivist) وخصم شاغال العنيد. مارس دور العراب لمسرح ماير هولد «البيو آلي» ولمشاريع ايزنشتاين التي افتتحت حقبة جديدة في الفن السينمائي. وقد استفاد من كرمه المستقبليون، الإخوة سيرابيون، التشكيليون والتخيليون، رغم ضيق لينين من الطبقات الكبيرة لأشعار مايكوفسكي في وقت شكت فيه البلاد من أزمة ورق حادة. ولم يكن هناك في التراث الفني للإنسانية ما

هو أجنبي في نظره. وكان المبدع في ذاته، وفي هذا المجال، متماثلا مع حامى القىم القدىمة. أىة مسافة ضوىئة تفصل روىا لىس بىن تلك الحقبة وحقبة ستالىن البربرىة فحسب، بل وأىضا حتى بىنها وبنى «اللىبرالىة» البىروقراطىة العجفاء التى تلت عهد ستالىن! ولا عجب فى أن الكتاب والفنانىن السوفىىت الآن، كىارا وناشئىن، ىتلفتون إلى ذلك العقد الأول للثورة تلفتهم إلى «عصر ذهبى» ىستمدون منه الإلهام. ومع أن تلك الفترة كانت مضطرة وأقصر من أن تفسح المجال أمام نضوج فن «خالد»، إلا أنها أثارى بعمق الحساسىة والخیال الشعرى فى روسىا. وعلى أىة حال، ما أن حلت نهایة ذلك العقد، حتى بعد الغطاء الجلىدى لعبادة الشخسىة ىطبق على الإبداع الفنى وكل شىء آخر.

ولم ىشارك لوناشارسكى فى الصراع الحزبى الداخلى البشع الذى دار بعد وفاة لىنىن. فقد أحس نفسه ضائعا وسط التعقیدات والمؤامرات وأنماط السلوك السائدة. وكان اقرب المتنافسین إلیه تروتسكى، الذى وصفه فى اللوحة المتضمنة فى هذا الكتاب، مقرونا مع لىنىن بأنه «واحد من أقوى اثنین، متقمصین كلیة لدوریهما». إلا أنه كانت لده تخوفات إزاء شخسىة تروتسكى «المغرورة والمتسلطة»، وإزاء افتقاره إلى موهبة العمل الجماعى. وربما ىكون أدرك، نظرا لمعرفته بعمق المشاعر السائدة فى أوساط البلاشفة القدامى ضد تروتسكى، إن تروسكى ىخوض معركة خاسرة. ولذلك حاول التکىف مع زىنوفىیف، الذى أکن له احتراما وإعجابا أقل بكثير مما أکنه لتروتسكى، إلا أنه كان خلال فترة طویلة زمیل لىنىن المقرب، والشخص الذى اعتبره كثیرون فى الفترة ما بىن 1923-1925 «الممسك القوى بالدفة».

أما بالنسبة «لتکىف» لوناشارسكى مع ستالین، فلا ىوجد أدنى مجال للتساؤل. فلىس ثمة، ولا ىمكن أن ىكون هناك، شخصان مختلفان عن بعضیهما ومتناقضان أكثر من هذین الرجلین. وأكبر دلیل على فقدان أى رابط إنسانى أو سىاسى بىنهما هو هذه المجموعة من اللوحات التى رسمها لوناشارسكى لملاح شخسىة القادة السوفىىت. فهناك فجوة ضخمة تفغر فاهها أمام القراء الروس—إذ لا ىشتمل الكتاب على لوحة ترسم ملاح شخسىة ستالین. وعندما نشر الكتاب فى العام 1923، وأعدت طباعته فى العام 1924، كان الصراع حول خلافة لىنىن على

أشده، وستالين قد عزز مركزه كأمين عام للحزب. وكانت اللوحة الناقصة بمثابة قدح في الذات الملكية. وهكذا، بعد فترة قصيرة، «اختفى» الكتاب من التداول، وظل ممنوعاً لمدة أربعين عاماً. (أعيد نشر أجزاء منه، منتقاة بعناية وخاضعة لمقاصد الرقيب، في السنوات الأخيرة فقط). ولا يمكن التخيل أن لوناشارسكي فاتته إدراك كم كان صمته حول ساليين داويا. ومن الواضح أنه لم يستطع إرغام نفسه حتى على إبداء حد أدنى من الولاء الشكلي للأمين العام. وكأنه أراد من موقفه هذا أن يخطر زملاءه البلاشفة أنه، إن كان لا بد من ذلك، فإنه مستعد أن يخدم تحت إمرة زينوفيف، ولكن ليس ستالين. وعندما تسنم ستالين القمة أخيراً، تجاهله لوناشارسكي قدر الامكان، وترفع عن القضايا الحزبية الداخلية، وحصر نفسه في نطاق عمله التقني والأدبي. وتحاشى اللقاءات التي تصارعت فيها الفئات المختلفة مع بعضها البعض والاجتماعات الحزبية التي حلت بمشاهد «عبادة الشخصية» المشينة وكان لا يزال يأمل في المحافظة على استقلال ذاتي في مجال عمله، وانهاد الثقافة والأدب والفنون من جرّافات الستالينية والاستمرار في مهمته كراع اشتراكي للثقافة. وفي أثناء تلك السنوات، حطم قلمه السيال جميع أرقامه القياسية. فقد نشر كتب الفن والثورة، المسرح والثورة، معالم الأدب الأوروبي الغربي في العام 1924، من سبينوزا إلى ماركس في العام 1925، وقضايا سوسيولوجيا الموسيقى في العام 1927، ومجموعات مختلفة تشتمل على مقالات نقدية، إضافة إلى مخطوطات لأفلام ومسرحيات عديدة¹.

ولكن حتى المفوضية والدراسات الأدبية لم تمنحه الملجأ الذي كان يبحث عنه. فالمفوضية تسلل إليها عملاء ستالين بالتدريج، ولم يحبذ الأمين العام على الإطلاق تجارب لوناشارسكي الثقافية «شبه الفوضوية» والضجيج «العصري المنحل» في الأدب والفن. وهكذا تم فرض الانضباط الجديد ببطء. وفي العام 1927 نفي تروتسكي وراكوفسكي وراديك إلى سيبيريا وطرد زينوفيف وكامينيف عملياً من

¹ كتب مسرحية بعنوان أوليفر كرومويل في عام 1919، وكامبا نيللي في عام 1922، وفيما بعد، في العشرينات، نشر أعماله المسرحية في مجلدين. ولم يقرأ أعماله المسرحية، ولكنني أذكر أن النقاد في موسكو تحدثوا عنها بسخرية مترفعة واعتبروه كاتباً مسرحياً عادياً الموهبة.

الحزب، واحاقت التعاسة المريرة بلوناشارسكي. وبدأ قلبه المعذب يخذله، وكف عمليا عن ممارسة واجباته الرسمية، مع أنه ظل على رأس المفوضية لمدة عامين آخرين، أي حتى العام 1929. وقد وجد بعض العزاء في المهمات المؤقتة، التي كان ينتدب فيها إلى خارج البلاد. فقد انتدب متحدثا رسميا باسم السوفييت حول القضايا الثقافية في عصبة الأمم في جنيف، واستغل المناسبة ليتجول، برفقة صديقه القديم مكسيم لتفينوف، الذي أصبح مفوضا للشؤون الخارجية، في الأماكن التي اعتاد ارتيادها في أوروبا، وفي المتاحف والمسارح في باريس وبرلين. وبات يحس بغربة متزايدة في موسكو، وسط الطقوس الشاذة لعبادة شخصية ستالين والعنف «بالجملة» الذي رافق تنظيم الاقتصاد وفقا لمبدأ الجامعة. وفي اثر كل عودة إلى موسكو، كان ينزلق ثانية إلى أوروبا ليداوي قلبه المستعصي على الشفاء ويريح عقله المضطهد. وكان يرسل من فرنسا وألمانيا إلى الدوريات السوفييتية مقالات في النقد الأدبي ورسائل فقيرة المضمون بصورة محزنة ومعقدة من حيث الأسلوب. وتوالت اللطمات من جميع الاتجاهات: في عام 1931 انتحر مايكوفسكي، ثاني أبرز شاعرين في الحقبة الثورية، وكان الأول، ايزينين، انتحر قبل ذلك بعدة سنوات. وفي عام 1932 وبّخ ستالين مؤرخي الحزب الذين لم يبدوا حماسة كافية في تزوير تاريخ الثورة. ثم في عام 1933، سقطت ألمانيا في هوة النازية. ولكن شعاعا من الأمل، على أية حال، بزغ في الطرف الآخر من أوروبا، متمثلا بقيام الجمهورية في أسبانيا. وعين لوناشارسكي سفيراً في مدريد. هل تم التعيين بمبادرة من لتفينوف أو ستالين؟ ففي ضوء الأحداث اللاحقة يبدو هذا التعيين نذيراً بالشؤم، إذ أن السفارة في مدريد أصبحت في السنوات التالية نوعاً من غرفة الإعدام بالنسبة لكل من شغل منصب السفير فيها، حيث أنهم جميعاً، كقاعدة عامة، هلكوا في حملة التطهير الواسعة. إلا أن لوناشارسكي توفي قبل تسلمه مهامه كسفير، في عامه التاسع والخمسين. (أمضى أسابيعه الأخيرة في محاولة جادة لتعلم اللغة الأسبانية). ولو أنه عاش فترة أطول لكان احتسب ضده ارتباطه القديم بتروتسكي وزينوفيف وكامينيف وهرطقاته التي دافع عنها بعناد، والإساءة التي ألحقها بستانين في عام 1923، وكان من الصعب عليه تفادي وصمه «كعدو للشعب» وجاسوس ومخرب. ولكنه توفي قبل التطهير الكبير

بسنتين، وهكذا أقيمت له جنازة رسمية ودفن تحت حائط الأبطال في الكرملين.

وفي السنوات العشرين التالية غطى النسيان الموغر به من قبل البيروقراطية اسمه ودوره في الثورة وإنجازاته وكتاباتاته. وعندما كان قاضيا «محاكم التفتيش» الفلسفية الستالينية، جدانوف والسكندر انوف، يأتيان على ذكره وإنما كانا يفعلان ذلك فقط من أجل إظهاره كشخص انحرف عن الصراط المستقيم للعقيدة القويمة.

ولكن فصول الانتلجنسيا إزاء أفكاره وشخصيته اشتد في السنوات الأخيرة. ويجري الآن استخراج أعماله ببطء، بمشقة، وبصورة انتقائية. فالمجموعة الحاكمة حاليا ترى أنه من المناسب تقديم بعض كتاباته، الأكثر تقليدية أو الملموسة بأفة الستالينية، إلى القراء الشباب والنهمين التواقين إلى الوصول إلى تراث الثورة العقلي المغمور. ولكن لوناشارسكي، العقل الحرّ والمنفتح، الفيلسوف الضال، المبدع الجريء، وأخيرا وليس آخرا، المشارك اللامع والشاهد على الثورة، لا يزال يمثل إحراجا مربكا للبيروقراطية. ولذلك ما زالت تحذف أو تخفي بعناية تلك الأجزاء من كتاباته -وهي كثيرة- التي يشتم أنها على «مادة متفجرة».

ويندرج هذا الكتاب، بالطبع، تحت تصنيف المادة المتفجرة. وتكفي نظرة سريعة إلى قائمة المحتويات لتفسير ذلك: فمعظم الأشخاص الذين يكرمهم لوناشارسكي هنا لا يزالون أشخاصا «ساقطين من الاعتبار» في الاتحاد السوفييتي. إنه يكرمهم على طريقته الخاصة، المتسمة بدفء الشعور والتجرد، ويصورهم في جوانب قوتهم وضعفهم على حد سواء. وحتى لينين، الذي كان على فراش الموت عندما ظهر وصف لوناشارسكي لملامح شخصيته، لا يبدو هنا ذلك القديس السوبرمان الذي تصوره الأسطورة الرسمية. ولا يتردد لوناشارسكي في وصف مارتوف زعيم المناشفة، بعطف وإشفاق. حتى أنه عبر عن أمله في أنه ربما وجد مارتوف لنفسه مكانا داخل الحركة الشيوعية، كقائد «للجناح اليميني» في صفوفها. وكم يلوح هذا كله نائبا عن المفهوم الأحادي اللاحق للحزب. وقد أحسنت دار «ألين لين بنغوان بريس» للنشر صنعا بإحياء ذكرى لوناشارسكي في

الذكرى الخمسين للثورة الروسية بإصدارها كتابه الصغير المدهش هذا. وأمل أن تصبح كتابات لوناشارسكي الأخرى قريبا في متناول القارئ الإنكليزي.

اسحق دويتشر

هاربوركوويدج
ولاية نيويورك
نيسان (ابريل) 1968

=====

مقارنة بين طبعات كتاب لوناشارسكي

ترجم النص الرئيسي لهذا الكتاب عن طبعة عام 1923 من كتاب لوناشارسكي لمحات من سير شخصيات ثورية، الذي أصدرته دار النشر العمالية «ترانسبوسيكيتسيا» في عشرة آلاف نسخة. وقد نشر هذا الكتاب، بأشكال مختلفة، أيضا في ثلاث طبعات أخرى قبل وبعد عام 1923.

وقد ظهرت النسخة الأصلية لأول مرة فيما يشكل الجزء الأول من أربعة مجلدات حول تاريخ ثورة أكتوبر، صدرت في بتروغراد عام 1919 بعنوان الثورة العظيمة، عن الناشر غرزيبين. وكانت دور النشر الخاصة آنذاك، بعد سنتين من قيام الثورة، ما زال مسموحا بها. وكان غرزيبين ناشرًا ليبراليا جادا، ذا سمعة طيبة جدا. واشتملت قائمة منشوراته في عام 1919، إضافة إلى الفن الروائي وكتاب لوناشارسكي، على مذكرات وتاريخ لأحداث عام 1917 بقلم كتاب يقفون على رقعة واسعة نسبيا من حيث الانتماء السياسي: فقد ظهر فيها الزعيمان المنشفيان دان ومارتوف، وزعيم الاشتراكيين الثوريين اليمينيين تشيرنوف، وبوتريسوف، سوخانوف وليير الزعيم البوندي. كما اشتملت القائمة على مؤلفات عديدة دينية وفلسفية غير ماركسية. وقد هاجر غرزيبين بعد فترة قصيرة إلى برلين حيث استمر في النشر باللغة الروسية حتى فترة متقدمة من الثلاثينات. وأقدم على هذه

الخطوة لاعتبارات عملية محضة -النقص في الورق ومواد التجليد، ومشاكل العمال- إضافة إلى الاعتبارات السياسية. وكان إدخال الكتب المنشورة من قبل مهاجرين في الخارج إلى روسيا مسموحا به في العشرينات بحرية نسبية، كما كان كثير من المنظمات السوفيتية الراقية في توزيع كتبها داخل مضطرة عمليا إلى نشرها في الخارج، لاعتبارات اقتصادية وتقنية ملحة. فبسبب من الفوضى الناجمة عن الحرب الأهلية، كانت أوضاع صناعة الورق وأدوات الطباعة -مثل بقية الاقتصاد الروسي- سيئة جدا.

وتقدم هذه الخلفية تفسيراً للملاحظات التي أوردها لوناشارسكي في مقدمة طبعة عام 1923، حيث وجد أنه من الضروري تفسير اختياره لغرزيبين ناشرا له في عام 1919، وقد شكّا أيضا من أن غرزيبين عجل في دفع الكتاب إلى المطبعة دون علمه، ومن أنه لا يزال ينشره في الخارج «دون إذن منه». وهي احتجاجات يجب ألا نأخذها على علاتها إلا انه من غير المحتمل أبدا أن يكون نشر كتاب الثورة الروسية تم من دون علمه، ولم يكن من غير المؤلف، حتى في عام 1923، أن ينشر المرء كتبه لدى ناشر مهاجر محترم مثل غرزيبين. والأرجح أن لوناشارسكي أساء إلى بعض زملائه من شاغلي المناصب الرفيعة في الحزب، ربما بسبب صراحته الشديدة في سيرته الذاتية التي تشكل أطول فصل في كتاب 1919، ربما لأنه لم يكتف فقط بتجاهل تقديم لوحة لستالين، وإنما أيضا تجنب ذكره في الكتاب كله باستثناء إشارة عابرة واحدة إليه.

وقد حذف لوناشارسكي من طبعة عام 1923 الموسعة والمعاد كتابتها الفصل الخاص بسيرته الذاتية السياسية (وهذا يقود المرء إلى الشك بأن هذا هو مصدر الإساءة في طبعة عام 1919)، كما حذف لوحة قصيرة تصور ملامح شخصية كامينيف، وأضاف من مصادر عديدة (مذكورة في المقدمة) تصويره لملامح شخصيات بليخانوف، سفيردولف، فولودارسكي، اوريتسكي، ف.ا. كالينين وببسالكو. ولا يرد هنا أيضا أي ذكر لستالين.

أما الطبعة التالية، الصادرة في عام 1924 عن دار النشر الأوكرانية الرسمية في كييف، فهي مشابهة من حيث المحتوى لطبعة عام 1923.

والفروقات الوحيدة هي فروقات تحريرية: الأسلوب مصقول أكثر، والتتقيط معدل هنا وهناك، والأخطاء المطبعية مصححة. وبعد ذلك التاريخ، لم يشهد الكتاب النور بصورته الكاملة مرة أخرى أبداً. ومن المعقول الافتراض أن ستالين عني شخصياً بذلك.

وعلى أية حال، نشرت في عام 1965 نسخة مقتضبة جداً من الكتاب في مجلد يشتمل على سير مختارة من مؤلفات لوناشارسكي، في سلسلة «سير أشخاص رائعين» من منشورات «الحرس الفتى»، وهي دار نشر تابعة للكومسومول في موسكو. وقد قام باختيار المادة ابنة لوناشارسكي، إيرينا، وحررها إ.زاتس. واستمدت النصوص من طبعة 1924، وحذفت منها اللوحات التي تصور ملامح شخصيات تروتسكي، زينوفيف، مارتوف، ف.إ. كالينين وبيسالكو. ومن الواضح أن الثلاثة الأوائل اسقطوا لأنهم لا يزالون أشخاصاً «ساقطين من الاعتبار». أما ف.إ. كالينين وبيسالكو فمن المحتمل أنهما حذفاً لأنهما في الحقيقة غير هاميين، وليس من الضروري إدراجهما في مجلد موجه على القراء الشباب، غير المختصين وقد اقتطعت أجزاء هامة من النصوص المتعلقة بالشخصيات التي جرى تقديمها. ومن أجل إيضاح الاختلاف بين الطبعات، نورد أدناه لوحة مقارنة لقائمة محتويات الطبعات الأربع:

1919	1923	1924	1965
مقدمة	تقديم	تقديم	
تاريخي الحزبي			
لينين	لينين	لينين	لينين
تروتسكي	تروتسكي	تروتسكي	
زينوفيف	زينوفيف	زينوفيف	
	بليخانوف	بليخانوف	بليخانوف
	سفيردلوف	سفيردلوف	سفيردلوف
	فولودارسكي	فولودارسكي	فولودارسكي
	اوريتسكي	اوريتسكي	اوريتسكي
مارتوف	مارتوف	مارتوف	
	ف.إ. كالينين	ف.إ. كالينين	
	بيسالكو	بيسالكو	

ولا تحتوي طبعة 1965 على أية تحريفات في نصوص طبعة 1924، ولكن المحرر ذكر أن الكتاب «ينشر... بمحذوفات بسيطة وتصحيح للأخطاء البارزة». وهذا لا يعدو كونه تعبيراً لطيفاً عن تشويه الحقيقة. ويشار إلى بعض المحذوفات على الصورة التالية: (...)، بينما لا يشار إلى بعضها الآخر على الإطلاق. أما الاختلافات بين نصي 1923 و 1924 فلا تؤثر في المعنى ولا تستحق التسجيل.

وتشتمل المحذوفات من نص 1924 في نص 1965 على نوعين من المادة: الإشارات إلى أشخاص ذكروهم محرّم مثل تروتسكي وزينوفييف، والعبارات التي تصف لينين بمصطلحات دون مستوى الإعجاب الكامل. ونتيجة لذلك فإن تصوير لوناشارسكي لملامح شخصية لينين يبدو في طبعة عام 1965 مسطحاً وغير انتقادي ومبتذلاً مثل جميع السير التي تحيط لينين بمظاهر القداسة، وذلك بعد تجريده من كل التلميحات المعتدلة حول جوانب النقص في لينين وأخطائه، التي أضفت على تصوير لوناشارسكي لزعيم البلشفي صبغة من الإنسانية والمصادقية، نادرة في الكتابات السوفيتية.

مايكل غليني

مقدمة ا. لوناشارسكي

يشتمل هذا الكتاب على سلسلة مقالات كتبت في مناسبات مختلفة حول بعض رفاقنا في الحزب الشيوعي الروسي.

ويجب أن أبدأ بالتحذير من أن هذه ليست سير حياة، ليست شهادات، أو ليست لوحات متكاملة وإنما مجرد تصوير لملامح شخصيات. وميزتها، التي هي في نفس الوقت نقطة ضعفها، إنها مبنية كلياً على الذكريات الشخصية.

ففي عام 1919 طلب مني الناشر غرزيبين، الذي كنت على معرفة به وأوصى به مكسيم غوركي، البدء بكتابة مذكراتي حول الثورة العظيمة. وتمكنت خلال فترة وجيزة من تسليمه الجزء الأول -أو بالأحرى التمهيدي- الذي حاولت فيه تعريف القراء بشخصي، كي يستطيعوا الحكم على الجوانب الذاتية نوعا ما في «التاريخ» الذي كنت بصدد إعداده، وتعريفهم بالأبطال الرئيسيين في الثورة على قدر معرفتي بهم وما بدا لي من أن معرفة بشخصيتهم وأحداث في حياتهم قبل الثورة، تستحق مزيدا من العرض.

وقد واجه الكتاب، في الحقيقة، مصيرا غريبا. فبينما حالت الظروف دوني ودون العمل فيه، وأصبحت مقتنعا أن كتابة مذكرات في زمن لم يكن فيه حدث واحد في الثورة قد استقر -إذ كنا لا نزال نعيش في بوقتها بالذات- هو أمر مستحيل بكل بساطة (من جملة ما أقنعني بذلك كتاب سوخانوف المتعدد المجلدات حول الثورة)، وبينما بدا لي أن لأي وصف قبل أو أنه لتلك الأحداث دون دراسة الوثائق سيكون ذاتيا جدا ولن يكون أكثر من مجرد عرض يتسم بطابع المقالة- في هذا الوقت بالذات، نشر غرزيبين، دون علم مني، المجلد الأول من مذكراتي المقترحة. ويبدو أنه مستمر في نشرها في الخارج دون استئذاني.

واعتقد أنه من الضروري ذكر هذه الحقائق لتجنب أية إساءة فهم حول طبيعة الكتاب.

وقد ارتأيت أن استخرج منه الآن، مع تعديلات طفيفة، تصويري لملامح شخصيات الرفاق لينين، تروتسكي وزينوفيف. وما زالت اعتقد أن هذا التصوير دقيق إلى حد كبير ومنصف، وربما كانت فيه فائدة لبعض الناس وخصوصا الأعضاء الشباب في الحزب الشيوعي الروسي والأنصار من خارج إطار الحزب.

والنقص الأساسي الذي يشكو منه هذا التصوير هو اعتماده كلية على مائدة يعود عهدا إلى ما قبل عام 1917. وأود الاعتذار عن اضطراري إلى التحدث عن شخصي بصورة عابرة في موضع أو موضعين.

وقد سمعت المقالة المتعلقة بالرفيق زينوفيف. وأضفت إلى ما هو
مذكور أعلاه تصويراً لملاح شخصية مارتوف، مستمداً من كتابي
الثورة العظيمة، كما أضفت مقالاتي في تأبين أوريتسكي، كالينين
وبيسالكو، واعدت كتابة ذكرياتي عن فولودارسكي وسفيردلوف، حيث
أن كتاباتي، السابقة عنهما فقدت.

أما ذكرياتي الخاطفة عن ج.ف. بليخانوف فقد كتبت بناءً على طلب
من محرر صحيفة «تحت الراية الماركسية»، حيث نشرت هناك أولاً
في بداية السنة الحالية.

ا. لوناشارسكي

موسكو 1923/3/20

المحتويات

مقدمة بقلم اسحق دويتشر
مقارنة بين طبعات الكتاب
تقديم بقلم أ.ف. لوناشارسكي
فلاديمير ايليتش لينين
ليودافيدوفيتش تروتسكي
غريغوري اوفسيفتش زينوفيف
جورجي فالنتينوفيتش بليخانوف
يعقوب ميخائيلوفيتش سفردلوف
الرفيق فولودارسكي
موزي سولومونوفيتش اوريتسكي
يولاي اوسيبوفيتش مارتوف
فيودور ايفانوفيتش كالينين
باقل بيسالكو